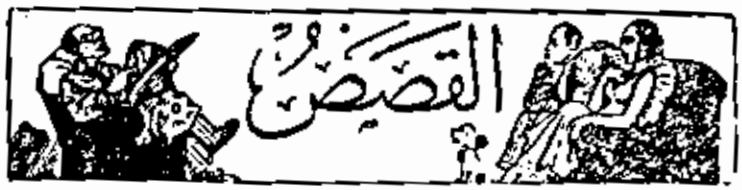

البجعــــة

للكاتبة الإنجليزية باميلا . ه . جونسون

ف اللحظة التي شاهدت فيها الطفلة ولاحظت هزالها وهى واقفة بجوار النافذة المستديرة ، ويداها تعبثان بعنق التمثال الخزفى للبجعة البيضاء ، أيقنت أنها ستصير حتما من الجميلات عندما يكتمل نموها . ولم تكن قد شعرت بوجودي ، فوقفت ساكنا بجوار باب الغرفة أتأملها في إمعان .

كانت سنها — على ما أعتقد — تتراوح بين الحادية عشرة وكانت — إذا عنّ لى أن أحكم عليها — أكثر شبها بوالدتها جلاديس من صورة أبيها توم ، تلك الصورة التى شاهدتها معلقة فى المطبخ . ولاحظت أن أطرافها نامية نموا ملحوظا ، وعينيها واسعتان بالنسبة إلى وجهها ، ترتدي مئزرا قديم الطراز أبيض اللون ، قصير الأكمام ، يتحلى بزركشة وزخارف من « الدانتلا » على حافته . وكان نظيفا على نقيض ردائها الداخلي الداكن الذى كان يبدو قديما رثا .

كانت الطفلة تحرك أناملها فى حنان على صدر البجعة وجناحيها . وبدت كأنها معجبة بذلك التمثال المصقول ، فكانت تتأمله وكأنها خبيرة بفنه وجماله . وكان شعرها مشدودا خلف جبهتها الصغيرة البارزة ، وقد انعقد بشريط أبيض . ولعلّ أحدثت حركة بسيطة ، فقد التفتت الطفلة ناحيتي ونظرت إلى ، ثم فارقتها فى الحال روح الطمأنينة ، ودفعت بالبجعة خلف ستار ، ثم جعلت تمسح يديها فى مئزرها — وكان فى بياض الثلج — فترك فيه أثرا خفيفا من قذارة يديها . وبدت أسنانها من بين شفتيها وتراجعت كما لو أنها ستختفى كما اختفت « أليس »[1] خلال المرآة .

ولم أتفوه بكلمة وأنا أتأمل ذلك الجمال المنتظر . حقا ، لقد كانت أكثر شبها بجلاديس من توم . كانت تشبه جلاديس التى كنت أعهدها منذ زمن بعيد ، لا تلك التى أعرفها الآن . ولم تصرف الطفلة عينيها عن وجهى ، فى الوقت الذى كانت فيه تتحسس الحائط خلفها ، وتتحرك فى تلصص بجواره وقد تصلب ظهرها . فقلت « تعالى . لا تذهبى » فشهقت شهقة قصيرة من الرعب ، ولكنى تقدمت إليها وقبضت على معصميها ، وانحنيت فى ذات الوقت حتى صار وجهى فى مستوى وجهها ، وقلت « لا تهربى إنى عمك (فيل) » . وحاولت أن تبتسم فى أدب ثم ارتجفت عضلة على ركن فمها بعد أن تلاشت ابتسامتها .

سألتها فى رقة « لماذا تخافيننى ؟ إنى أعرف والدتك منذ زمن طويل . وها قد مضت عشرون عاما دون أن أراها . أليست تلك مدة بعيدة ؟ لقد أخبرتنى أن أحضر هنا لأشاهدك » وأضفت قائلا حتى أجعلها تشعر بالسعادة « لأشاهد أى فتاة كبيرة لها » .

وأومأت الفتاة برأسها فى صمت تشير إلى البجعة . فقلت « تمثال جميل ، أيعجبك ؟ » فابتسمت .

قلت « ما اسمك ؟ » فلم تجب . قلت « أنت (آمى) » فهزت رأسها بالنفى فى شدة وخوف ظاهر . وعجبت ، ما الذى فعله جلاديس حتى جعلت هذه الطفلة مرهفة الأعصاب تهاب الغرباء ؟ وشاهدت جلاديس من خلال النافذة ، واقفة عند مدخل الخباز ، تسارع فى شراء كعك للشاى ، فقد كانت زيارتى لها فجائية ، ولم يكن عندها ما تقدمه إلى ، ولذلك قالت لى « ألا تستطيع أن تسلى نفسك مدة عشر دقائق يا فيل ؟ يجب أن أستحضر العشاء لتوم . وإذا حضرت آمى قبل عودتى فعرفها بنفسك » .

وقلت للطفلة « متى قدمت ؟ لقد أخبرتنى والدتك أنك ذهبت إلى الخليج » .

فابتسمت كأنما سرت لقدومها إلى الدار على غير انتظار . وفجأة أمسكت البجعة ودفعتها فى يدى ، ثم قالت « جميلة ! » فوافقتها على ذلك . تذكرت رؤيتى لهذا التمثال منذ عشرين عاما فى دار جلاديس القائم على قمة الجرف . وكانت البجعة قطعة أثرية نفيسة من الخزف .

(١) قصة « أليس فى بلاد العجائب » من قصص الأطفال المشهورة ، تدخل فيها « أليس » إلى هذه البلاد من طريق المرآة . المترجم .

ووضعت الطفلة يديها على كتفي ، فركبت ، وإذا بها تجلس على ركبتي ، وهي تبتسم في وجهي ، وكأنما توطدت الصلات بيننا . وأخبرتها بوجه الشبه بينها وبين والدتها ، وحدثتها عن جمال أمها . وقلت أتعرفين أننا اعتدنا — أنا ووالدتك أن نذهب إلى الخليج ، وقد حملنا معنا أدوات الشاي لنقضي بقية يومنا هناك ؟ وكنت أسبح حيث تقوم تلك الصخور الثلاثة في صف واحد ، وادعي بأن لي يوم ما سأسبح وأسبح ولن أعود بتاتاً . ثم أختبيء في ذلك الكهف الصغير الواقع تحت الجرف مباشرة وأناديها مثل ... » وبحثت عن كلمة لطيفة فقلت « مثل النورس[1] »

وصفقت الفتاة ، ثم عقدت يديها كما لو أنها تذكرت تحذيراً بألا تنفض أصابعها مطلقاً . وانتظرت متابعتي الحديث فقلت « ثم أسبح راجعاً نحنقني ، ثم ننفجر ضاحكين ... كان ذلك منذ زمن بعيد » .

فسألتني وهي ترفع أصبعها في حذر لتلمس قمة رأسي « وأين كنت ؟ » فاعتقدت أنها تعني « أين كنت هذه المدة ؟ » فأجبت « كنت في الخارج » .

فبدت كأنها تفقه ما قلته . وكنت قد وضعت البجعة على الأرض بجواري ، فشعرت بها تنزلق عن ركبتي متجهمة الوجه ، ثم التقطت التمثال وأخفته عن الأنظار خلف الستار ، ثم عادت تجلس معي وانتظرت أن أفضي إليها ببقية الحديث ، فقلت « إني لم أقابل والدك بعد ، مع إني شاهدت صورته » فابتسمت فقلت « ولكني سأقابله الليلة عندما يعود من عمله » .

ووضعت الطفلة ذراعها حول عنقي ، فشعرت بسرور عظيم يخالجني ، وإذا بي أسألها « أية هدية تودين أن أبعث بها إليك ؟ » فأشارت في الحال صوب النافذة ، فقلت « البجعة ؟ » فابتسمت . فأردفت قائلا « سأشتري لك واحدة مثلها من لندن ، وسأبعث بها إليك في طرد مسجل ومدون باسم الآنسة آمي أون » فحركت رأسها في عنف ، ثم أخفت وجهها بين يديها ، وبعد لحظات نظرت إلي ، وقد استعادت هدوءها السابق ، ثم جذبت الشريط المعقود من شعرها ، فانسدل بلونه الأشقر كلون الصباح على رمل الشاطئ الندي .

وسألت الطفلة « أتحبين إلي؟ » فلمست خدي . ولاحت لي جلاديس مرة أخرى ، تتحدث إلى جار لها خارج البوابة ، وشاهدتها الطفلة فقفزت من ركبتي ، وبدت كأنها خجلة أو خائفة . ثم اختطفت الشريط من يدي ، وجمعت شعرها وعقصته ، ثم ربطته ، بالشريط ربطة غير متقنة في لهفة وكأنها تتوق إلى الرحيل . فسألتها « إلى أين تذهبين ؟ » .

وأشارت إلى جلاديس من خلال النافذة ، ففتحتها وسألتها ما الأمر ، فقالت « لقد نسيت المفتاح . أرجو أن تفتح لي الباب » .

وعندما التفت حولي ، كانت الفتاة قد اختفت ، فظننت أنها أسرعت إلى المطبخ تنتظر قدوم والدتها أو صعدت لتغسل يديها استعداداً للشاي ، فقد لاحظت أنهما قذرتان وبهما خدوش كأنها حدثت أثناء محاولتها تسلق الصخور الزلقة التي حول الخليج . وأحسست الخيبة ، فقد كنت أود أن تراني جلاديس معها ، فربما حدثتني بلهجة أقل خشونة من حديثها السابق ، عندما ترى الوثاق الذي توطد بيني وبين الفتاة .

وفتحت الباب فدلفت منه جلاديس مجهدة وقالت « إني آسفة لتغيبي هذه المدة الطويلة يا فيل . إن هذا هو الضرر الذي يأتي من معرفة الناس للانسان في الطريق ، ولا بد أن تقف وتحيي عند كل ناصية » .

وذهبنا إلى المطبخ ، وجعلت أساعدها في نقل حاجاتها ، وسمعتها تقول لي « كيف استطعت أن تجلس هنا وحدك ؟ » .

فقلت ضاحكا : « لم أكن هنا وحدي . إن آمي كانت معي » فلم تنه بكلمة ، فنظرت إليها فشاهدت في دهشة أن وجهها قد تقنع بقناع من الحيرة ، فقلت « ما الأمر ؟ » قالت « لا يمكن أن تكون شاهدت آمي . إنني قابلتها في طريقي وهي مقبلة من الشاطئ ، وقد أرسلتها إلى محل لوز لتقص شعرها ، وستحضر وقت تقديم الشاي » .

وأحسست بشعور خفي من الرهبة يغزوني ، فقلت « ولكن ، لا يمكن أن يحدث ذلك ، لقد كانت تتحدث معي هنا ، وكانت تجلس على ركبتي » فقالت « ما شكلها؟ » فجعلت أصف لها الطفلة بشعرها المعقود بالشريط ، وردائها البني ، ومئزرها الأبيض وقلت « وكانت تلعب بالتمثال الخزفي للبجعة البيضاء الموضوع على النافذة » .

(١) النورس : طائر مائي .

وهبت جلاديس واقفة ، وقد تصلب جسمها ، ثم صرخت صرخة مخيفة ، وأمسكت بها قبل أن تخر ساقطة ، وأجلستها على المقعد . وعندما فتحت عينيها نظرت حولها فى ذهول ورعب ثم قالت « أغلق الباب والنافذة » وازداد شعورى بالخوف وخيل إلى بأن ظلاما حالكا قد خيم على جو الغرفة ، لم أعهده فيها من قبل.

وقالت جلاديس « لقد رأيت مارجريت » واعتدلت فى مقعدها ، وقد اتكأت على مرفقها تراقب الباب المغلق . وألححت عليها أن تفسر لى ما غمض من حديثها ، وتخبرنى به دون إبطاء ، فقد كنت أود أن يطمئن صوتها على أى صوت أتوقع حدوثه كوقع أقدام تسير فى تؤدة وتردد على الدرج ، واحتكاك يد صغيرة تستند على الباب ، ولكنها لم تنه بكلمة . وبدافع قوى ، تركتها وهى تبكى وتتوسل أن أظل معها ، وذهبت إلى الغرفة الأمامية ، وأزحت ستائر النافذة . كانت البجعة لا تزال فى موضعها ولكنى لاحظت فيها شيئاً لم الاحظه من قبل . كان العنق يتصل ببقية الجسم بمسار مقعر لامع . واستمعت فى سكون الغرفة إلى دقات قلبى ، وأغمضت عينى وأنا أسير فى الممر عائداً إلى المطبخ ، وجعلت أتحسس طريقى بأطراف أصابعى دون أن أدرك ما الذى ألمسه . كانت جلاديس لا تزال متكئة على مرفقها ، وقد بدت فى عينيها دلائل الرعب والخوف . فقلت « من هى مارجريت ؟ » قالت « أنها ابنتك . أنت بعد فراقك الفجائى مباشرة . كانت طفلة جميلة . وكانت تعيش معنا — أنا ووالدتى — دون أن يعرف أحد عنها شيئاً ، ولم نكن نسمح لها بالخروج فيما عدا الحديقة بعد الغسق . كان من الصعب أن تهدىء من حالها ، فقد كانت دائمة القفز والمرح ، دائبة على اللعب والغناء . وكانت معجبة بالبجعة البيضاء وتحب أن تلهو بها ، فنهاها جدتها عن ذلك ، لأن التمثال كان تحفة ثمينة ولكن حدث فى ذات يوم أن أسقطت البجعة فانفصلت رأسها . أظنك قد لاحظت المسمار المثبت فى عنقها » .

وكنت أعرف أنه لم يكن هناك مسمار عندما كانت الطفلة تداعب بأناملها الجميلة جسم البجعة المصقول .

واستطردت تقول « كانت والدتى ذات مزاج حاد ، وكان من الصعب عليها أن تساعدنى فى ولادة ابنتى التى لا يعرف الناس عن والدها شيئاً ، بل كانت تشعر بالعار من ذلك . ولم يكن يزور دارنا القائمة على الجرف هناك سوى اللبان وبائع الصحف . وعندما رأت والدتى البجعة المكسورة ، انحنت على الطفلة ، وقبل أن أمنعها ، كانت قد لطمتها لطمة قوية على أذنها . ولم تكن والدتى فى الواقع تعنى أن تؤذيها ، بل أرادت أن تلقنها درساً فى الطاعة . وعدت مهجريت صاعدة إلى الطابق العلوى وهى تبكى وتنتحب ، وشعرت بارتباك وألم من كل ما حدث فقد كنت مغرمة بالطفلة ، حقيقة كنت أحبها حباً شديداً . وفى تلك الليلة خرجت مهجريت من نافذة غرفتها وهربت . ولا أدرى كيف استطاعت النزول من ذلك الارتفاع ، فقد كان من الصعب على طفلة مثلها أن تهبط على تلك النباتات المتسلقة الرقيقة .

وكدت أجن . ولم أجرأ على البحث عنها بحثاً دقيقاً خشية ألسنة الناس . على أية حال ، مكثت طول الليل هائمة عند الجرف . وفى الصباح عثرت على قطعة بيضاء من القماش ملتصقة على قمة إحدى الصخور الثلاثة ، فنزلت ولا أدرى كيف ، فإنى كما تعرف أخاف دائماً المرتفعات . كانت قطعة من مئزرها قد انحشرت بين نتوءين . فاستنتجت ما حدث . ومكثنا أسابيع ننتظر دون أن نجرؤ على التحدث ، ولم نستطع النوم ليل نهار . وأخيراً وجدوا جثتها . كان قد لفظها البحر وألقاها على الشاطىء على بعد أميال من هنا ، فى مكان لا أعتقد أننا ذهبنا إليه يوماً ما . ولم يتبينوا شخصية الجثة ، فإنه لم يبق منها شىء عندما ... » .

وفجأة أمسكت بمعصمى وقالت : « ألا تسمع ؟ » .

وكدت أموت رعباً وأنا أقول « ماذا ؟ » قالت « نوم . إنه قادم . لا تخبره بشىء . قل إنى مريضة . قل إنه قد أغمى على . قل أى شىء ... » .

وسمعته وهو يفتح الباب . فقلت لها فى سرعة « ولماذا احتفظت بالبجعة ؟ » .

فنظرت إلى كأنها لا تعى ما أقول . ثم قالت « إنها تحفة قيمة . لقد كانت والدتى تقول إنها ثمينة » وجعلت عيناها تتطلعان إلى السقف والحوائط والأركان ، كأنها لا تدرى من أى فضاء فى العالم قد يعود شىء إليها ، شىء كان عزيزاً عليها ، ثم فقدته إلى الأبد .

محمد فتحى عبد الوهاب